العلاقات بين المغرب والجزائر في عهد أبناء المنصور 1012-1037هـ/1603-1627م

أ.د.عمار بن خروف

قسم التاريخ -جامعة الجزائر

ملخص:

يبحث هذا المقال في العلاقات بين الجزائر والمغرب في النصف الأول من القرن 11هـ / 17م، ولا سيما في ربعه الأول.

وقد حاول كاتبه أن يجيب على التساؤلات الآتية:

1- لماذا مالت العلاقات في تلك الفترة إلى نوع من السلام، وحسن الجوار ؟

2- لماذا لم ترق العلاقات فيها إلى التعاون الفعال بين حكام البلدين.

3- ماهي النتائج التي ترتبت عن عدم التعاون بينهم؟

وقد تبين من خلال البحث أن الأوضاع في البلدين وانشغالات حكامهما بمشاكلهم الداخلية كانت وراء ذلك الميل. وأن من أهم النتائج التي أسفر عنها عدم التعاون بينهم هي:

-أفـول نجم السعديين في المغرب أولا في مملكة فاس ثم في مملكة مراكش، وتضعضع شأن الباشاوات في الجزائر.

-اسـتهداف الأسـبان البلدين بحملاتهم، ونجاحهم في احتلال مواقع جديدة في المغرب، وطردهم المسلمين نهائيا من الأندلس...

Résumé **:**

Cet article traite l'état des relations entre l'Algérie et le Maroc dans la 1ére moitié du 17éme siècle, en particulier le 1er quart du siècle.

L'auteur a tenté de répondre aux questions suivantes :

1- Pourquoi les relations se sont-elles orientées vers la paix et le bon voisinage ?

2- Pourquoi les relations non t-elles pas connu une coopération efficace entre les gouvernants des deux pays ?

3- Quelles ont été les conséquences de ce manque de coopération ?

Il s'avère que l'état des relations entre les deux pays était le reflet de la situation interne de chaque pays et la préoccupation des gouvernants des problèmes internes. De cette manière, les conséquences majeures de ce manque de coopération a engendré ce qui suit :

- La décadence de l'influence des SAADITE au Maroc (premièrement le Royaume de FES en suite le Royaume de MARAKECH), et la faiblesse des PACHAS en Algérie.

- Le ciblage par les espagnoles des deux pays et leurs réussite à occuper de nouvelles position au Maroc, ainsi que la chasse définitive des musulmans de l'Andalousie .

تتزامن كتابة هذا المقال مع مرور أربعة قرون كاملة على وفاة السلطان أحمد المنصور، في 16ربيع الأول 1012هـ/24 أوت 1603م، وهو أبرز سلاطين الدولة السعدية. وفي عهده أقام المغرب علاقات متنوعة، سياسية واقتصادية، وثقافية، مع كثير من الدول المجاورة له، وغير المجاورة، الإسلامية، والمسيحية. وقد أظهر المنصور براعة كبيرة في توجيه العلاقات المغربية معها الوجهة التي تخدم المصالح الخاصة للمغرب، وعرف بفضل حنكته في إدارة تلك العلاقات كيف يجني منها الفوائد، وكيف يجنب بلاده المخاطر، والأهوال؛ بحيث يمكن اعتبار المنصور مهندسا بارعا للعلاقات الخارجية للمغرب في عهده(1). ولكن خلفاءه من أبنائه لم يكونوا في مستوى تحكمه في العلاقات الخارجية، ودهائه في التعامل مع مختلف الدول مما جعل تلك العلاقات تتطور في اتجاهات مختلفة.

وفي هذا المقال نركز على دراسة العلاقات بين الجزائر والمغرب في عهد أبناء المنصور، ومعاصريهم من باشاوات الجزائر 1012-1037هـ/ 1603-1627م، تقديرا منا أنها لم تحظ بالدراسة المعمقة التي توضح معالمها، وتكشف خيوطها، وتبحث على الخصوص في الأسباب والنتائج التي تمخضت عن المنحى الذي سارت فيه.

والجدير بالذكر في بداية هذا البحث أن الجزائر والمغرب قد دخلا في الفترة موضوع البحث في مرحلة جديدة من حياتهما السياسية وعلاقاتهما فيما بينهما؛ففيها شهدت الجزائر تداولا سريعا للباشاوات على الحكم فيها، لأن الدولة العثمانية التي كانت تعينهم لحكمها،كانت تعزل بعضهم قبل أن يتموا ثلاث سنوات من الحكم، إما لعجزهم، أو للشكوى منهم .وقد نجم عن حكم بعضهم ميل الأمور إلى الاضطراب عليهم، نتيجة تزايد نفوذ ديوان الجند البري، وطائفة رياس البحري، وتدخلات هاتين المؤسستين في حسم الأمور على النحو الذي تريدانه، خلافا أحيانا لإرادة الباشا بل والسلطان العثماني نفسه، أو نتيجة أيضا لثورات القبائليين من سكان جبال جرجرة، وغيرهم.

كما تميزت الفترة موضوع البحث بتجدد غزو الإسبان، ثم غيرهم من الأمم المسيحية للشواطئ الجزائرية، وبالنشاط المتزايد للبحارة الجزائريين ضد سفنهم، وشواطئهم(2). والنزاع على الحدود بين الجزائر وتونس في الفترة 1614-1628م.(3)

أما المغرب فشهد في الفترة موضوع البحث الاضطراب الشديد، الذي نجم عن افتتان أبناء السلطان أحمد المنصور بعد وفاته في سنة 1603م، وهم: محمد الشيخ، وأبو فارس، وزيدان. ذلك الافتتان الذي استمر نحو سبع سنوات، تبادلوا فيه النصر والهزيمة والمواقع. ولم يهدأ إلا ابتدء من سنة 1610م، التي أصبح انقسام المغرب فيها إلى مملكتين شمالية حاضرتها فاس، وجنوبيه حاضرتها مراكش، أمرا مقبولا من الأطراف المتصارعة، بعد أن أنهكوا قواهم، وباتوا بدون جيش، وبدون سند قبلي أو ديني مخلص الولاء لهم.(4)

كما تميزت الفترة موضوع البحث باستئناف الإسبان غزو الشواطئ المغربية، واحتلالهم بعضها كالعرائش في سنة 1610م، والمعمورة في سنة 1614م(5)، ونشاط القوى الدينية والقبلية، وتقاسمها أجزاء المغرب (6). ونجاحها في القضاء على مملكة السعديين في فاس في سنة 1627م، وتقليصها لمملكتهم في مراكش، قبل القضاء عليها نهائيا في سنة 1659م، على يد كروم الحاج، شيخ عرب الشبانات.(7)

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : كيف تطورت العلاقات بين حكام البلدين في الفترة موضوع البحث ؟

إذا ما بحث في ذلك، وجد أن المصادر لا تشير إلى وقوع أي حرب بينهم، أو أي قطيعة. مما يعني أن العلاقات استمرت في السير في منحى السلام الذي سارت فيه منذ العقدين الأخيرين من عهد المنصور على الأقل. كما يجد الباحث في مصادر الفترة ووثائقها أن تلك العلاقات بين أولئك الحكام لم ترق إلى التعاون الفعال الذي يمكنهم من التغلب على الصعوبات التي كانت تواجههم في البلدين. وانطلاقا من هذه النتيجة الأخيرة نحاول الإجابة على التساؤلات الآتية :

1- لماذا مالت العلاقات في هذه الفترة إلى السلم، ونوع من حسن الجوار؟

2- لماذا لم ترق إلى التعاون الفعال؟

3- ما هي النتائج التي ترتبت عن عدم التعاون بين حكومتي البلدين؟

أ- فبخصوص التساؤل الأول يمكن القول :

-إن حكام الجزائر الذين تدخلوا مرارا بقوة في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن 10هـ/16م، لضمه إلى حظيرة الدولة العثمانية حين كانوا في عنفوان قوتهم، ولم ينجحوا في تحقيق ذلك الهدف إلا نجاحا مؤقتا، سريع الزوال، حيث كان حكام المغرب يستعيدون زمام الأمور فيه، أظهروا ميلهم منذ سنة1581 م،على الأقل إلى العيش في سلام مع جيرانهم. وتعزز هذا الميل باعتراف الدولة العثمانية في السنة التالية بالأمر الواقع في المغرب، أي ببقائه مستقلا عنها، تحت حكم حكامه السعديين، وتراجعها عن مشروع غزوه نهائيا.(8)

-إن الرقعة التي كانت تحت نفوذ حكام الجزائر كبيرة، وشاسعة جدا. وقد وجدوا صعوبة في الحفاظ على نفوذهم فيها فلم يكونوا في حاجة إلى مزيد من المساحة، ولا سيما في اتجاه المغرب الذي خبروا صعوبة التدخل فيه بقوة.

-إن مصلحة حكام الجزائر في الفترة موضوع البحث كانت في استمرار العلاقات السلمية مع جيرانهم في جهة الغرب ليتفرغوا إلى معالجة صعوباتهم الداخلية، وعلاقاتهم مع الدول الأوربية التي غلب عليها التوتر، وعلاقاتهم مع جيرانهم من الجهة الشرقية التي مالت إلى التوتر، ثم إلى القطيعة والحرب، خلال الفترة 1614-1628 م، كما ذكرنا.

-ومن جهتهم فان حكام المغرب السعديين، الذين خبروا الصراع مع الجزائر في النصف الثاني من القرن 10هـ/16م، قبلوا بالأمر الواقع فيها، فلم يعودوا يطمعون في ضمها إلى دولتهم، أو يتدخلون فيها بقوة، كما كان عليه الأمر في عهد السلطانين محمد الشيخ المهدي 1554-1557م، وعبد الله الغالب بالله 1557-1574م(9)، بل صاروا منذ عهد السلطان احمد المنصور 1578-1603م، ثم في عهد من تلاه، يميلون إلى العيش في سلام مع حكام الجزائر، ويعملون بحكمة ((اتركوا الترك ما تركوكم)) (10) فكانوا منذ

أواخـــر عهد المنصور، وفي عهد أبنائه يتجنبون ما قد يثير حكام الجزائر عليهم، أو ما قد يـــؤدي إلـــى الاصـــطدام بهـــم.بل إنهم كانوا يتحفونهم بهداياهم، ولا يقطعون الصلة بهم، ويـــتحملون ولـــو علـــى مضـــض بعض تصرفاتهم، التي لا ترضيهم، لأن مصلحة أبناء المنصـــور، وأحفـــاده في الفترة موضوع البحث، المتميزة بما أشير إليه من قبل،كانت في المحافظـــة علـــى العلاقات السلمية وحسن الجوار معهم، لا في توجيه العلاقات في اتجاه التوتر، والقطيعة، والحرب. (11)

ومن الشواهد التاريخية الدالة على ميل الحكام في البلدين إلى ما ذكر من الأمور مـــنذ أواخـــر عهـــد المنصـــور، وطوال الفترة موضوع البحث نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

1- أن المنصـــور تجنـــب ملاحقـــة الناصر في سنة 1595 م في داخل الحدود الجزائرية، قبل أن يستأذن حكام الجزائر، ويحصل على موافقتهم . وقد تجاوبوا معه، مما عده موقفا وديا منهم تجاهه.(12)

2- إن أبـــا فـــارس بن المنصور امتنع عن قبول العرض الذي قدمه له في سنة 1605م أنطوني شيرلي (13)، مبعوث إمبراطور النمسا، وملك إسبانيا، والمتعلق بالتحالف معه ضد العثمانيين من أجل إقصائهم من شمال إفريقيا، على أساس أن تكون السواحل فيه مـــن نصـــيب الإســـبان، والمناطق الداخلية من نصيبه هو(14)، وآثر البقاء في سلام مع جـــيرانه علـــى التآمر ضدهم، والتوسع على حسابهم؛ بل إن أبا فارس المذكور أبدى منذ تولـــيه على مراكش حرصا على أن تكون العلاقة بينه، وبين العثمانيين حسنة. وعبّر عن تلـــك الرغـــبة بمبادرته إلى إرسال هدية ثمينة إلى سلطانهم، كانت تتألف من 300 ألف أو نصـــه ذهبية، هذا في سنة 1604م، التي استقبل فيها العثمانيون في تلمسان بالجزائر أخاه زيدان المنافس له .(15)

3- أن زيـــدان بقي بعد عودته من تلمسان، بدون الدعم المأمول من حكام الجزائر علـــى صـــلة بهم. وقد ذكر في إحدى رسائله أن البولكباشي مصطفى صولحي، جاءه إلى الســـوس مـــبعوثا مـــنهم ليدعوه إلى العودة إلى الجزائر. وذكر في نفس الرسالة انه أعاد

المبعوث المذكور إلى من أرسله، ومعه مبعوث من عنده إليهم، محملا بالتحف والأموال .(16)

4- أن حكام الجزائر في الفترة موضوع البحث تجنبوا التدخل في الصراع الذي قام بين أبناء المنصور، بعد وفاته في سنة 1603م، فلم ينصروا أحدا ضد الآخرين مع توجّههم إليهم، يحدوهم الأمل في ذلك؛ فزيدان بعد انهزامه أمام قوات أخويه أبى فارس، ومحمد الشيخ في سنة 1604م، كانت وجهته إلى تلمسان عند حكامها العثمانيين، على أمل أن يساعدوه مساعدة فعالة، تمكنه من استعادة حقه في الملك في المغرب، لكن حكام الجزائر اكتفوا بإيوائه أشهرا عديدة، كانوا خلالها يحثونه على البقاء عندهم، ويعيدونه بالمساعدة قولا لا فعلا.ولما لم يمكنوه من الدعم المأمول كما ذكرنا، عاد أدراجه إلى بلاده، لا تصحبه إلا فرقة صغيرة من الفرسان العرب الذين جندهم بماله من قبائل المنطقة، استأنف بهم الصراع ضد أخويه (17). وبعد تبادل النصر والهزيمة، استقر له الأمر في مراكش، وبقيت فاس ومملكتها بيد خصومه.(18)

وكانت وجهة أبي فارس،وعبد الله بن محمد الشيخ،لما هزمهما زيدان في سنة 1609م،وانتزع منهما فاس، هي الحدود الجزائرية.إلا أنهما لم يحصلا على الدعم المأمول من جهة العثمانيين على العكس من محمد الشيخ المأمون الذي توجه إلى الإسبان، باحثا عن دعمهم لاسترداد الملك في المغرب، فقد وجد عندهم القبول ولكن بشرط أن يمكنهم من ميناء العرائش، الذي طالما حلموا باحتلاله في عهد والده.فقبل الشرط وحقق حلمهم في سنة 1610م .(19)

وقد أدى افتتان أبناء المنصور على الملك إلى ضعفهم. وإلى ميل المغاربة إلى التمرد عليهم تحت قيادة زعامات محلية، مرابطية، وقبلية. وأدى عجزهم عن إخضاع تلك الزعامات إلى انقسام المغرب إلى وحدات سياسية صغيرة عديدة، في سواحل المغرب، ودواخله (20)، أخذت الدول تتعامل معها، ومنها الجزائر، باعتبار أنها أصبحت أمرا واقعا في المغرب لا يمكن تجاهله، ولو أن ذلك كان لا يرضي أبناء المنصور وأحفاده.

وإذا كـــان حكـــام الجزائـــر أو رعاياهم لم يتورعوا عن التعامل مع القوى التي انشـــقت عـــن السعديين، فإنهم لم ينصروا أحدا من المتنافسين السعديين، أو المنشقين عنهم بحملة تحقق مبتغاه، كما كان يفعل أسلافهم خلال القرن 10 هـــ/16م .وليس هناك ما يثبت بشـــكل قـــاطع ما ذهب إليه أوغيست كور، ومن نحا نحوه، من أن حكام الجزائر هم الذين كـــانوا يغـــذون الانقســـامات التي كانت تقوم في المغرب (21) . فالمغرب الذي انقسم في أواخر القرن 15م إلى وحدات سياسية صغيرة كثيرة قبل قيام حكم العثمانيين في الجزائر، فـــي العقد الثاني من القرن 10هـــ/16م، عاد إلى الانقسام في العقود الأولى من القرن 11 هـــ/17م، لما توفرت الشروط لذلك الانقسام.

وحســـبي أن الســـعديين يتحملون قبل غيرهم مسؤولية تجزئه من جديد؛ فتهالكهم على السلطة هو الذي جعل رعيتهم تحول ولاءها إلى القوى الجديدة المناوئة لهم.

وقـــبل البحـــث في أسباب عدم التعاون الفعال بين حكام الجزائر، وحكام المغرب الســـعديين، نذكر بعض ما حفظته لنا صفحات التاريخ من إشارات قوية تدل على الصلات التـــي كانـــت قائمة بين الجزائر والزعامات المحلية، التي قامت في المغرب خلال الفترة موضوع البحث. ففيما يخص:

– علاقـــة الجزائريين بمقدمي الجهاد في تطوان: نجد في الوثائق، والمصادر ما يـــدل علـــى أنه كان للجزائريين صلات طيبة بمقدمي الجهاد في تطوان، من آل النقسيس، حيـــث كانـــت الســـفن الجزائرية تتردد عليها للتمون، والاستراحة، ولنقل المسافرين منها، وكذلـــك لبـــيع المغـــانم، والأســـرى . بل إن الغزاة التطوانيين كانوا يشتركون أحيانا مع الجزائريين في أعمال الغزو البحري .

وإذا كـــنا لا نملكـــ وثيقة تؤكد بما لا يدع مجالا للشك بأن الجزائريين هم الذين حرضـــوا مقدمي الجهاد في تطوان من آل النقسيس على التمرد على زيدان وقبل ذلك على أخـــيه محمد الشيخ المأمون، فإننا نميل إلى القول بأن العلاقة الطيبة التي كانت قائمة بينهم وبين الجزائريين لها أثر في ميلهم إلى الثورة، والاستقلال عن نفوذ أبناء المنصور (22) وفيما يخص:

-علاقة الجزائريين مع الثائر المرابط أبي محلي(23): نذكر توجه وفدين إليه من الجزائر، أحدهما من تلمسان، والآخر من بني راشد لتهنئته على انتزاعه سجلماسة التي كانت من مشمولات مملكة زيدان منه.وقد كان ضمن الوفد التلمساني العالم سعيد قدورة، الذي تولى بعد ذلك مناصب دينية، وتعليمية سامية في مدينة الجزائر. (24)

والجدير بالذكر أن أبا محلي كان قبل ثورته قد زار الجزائر،وهو في طريقه إلى الحج كما زارها في طريق عودته منه إلى بلاده. وكان منطلق ثورته لما سلم محمد الشيخ بن المنصور ميناء العرائش للإسبان في سنة 1610م، من بني عباس في أقصى الجنوب الغربي الجزائري(25).وكان جيشه الذي احتل به سجلماسة سنة 1610م، يتألف في معظمه من قبائل الشراقة الموالية للجزائر (26). مما يدفع إلى الظن بان أبا محلي قد ثار ربما بتحريض من الجزائر، التي كانت لا تستحب أي تعاون بين الأمراء السعديين، مع أعدائهم الإسبان أو غيرهم من الأمم المسيحية .

وما يقوي هذا الظن هو أن زيدان بعد انهزامه أمام المرابط الثائر عليه في مراكش في سنة 1612م (27)، واضطراره إلى ترك حاضرته للمنتصر عليه، لم يتوجه إلى الجزائر لطلب عونها كما فعل في سنة 1604 م لما فقد فاس، بل آثر البقاء في المغرب، والاستعانة بالمرابط أبي زكريا يحي الحاحي، الذي تمكن من هزم أبي محلي، وقتله في سنة 1613م، وإعادة مراكش إلى زيدان.(28)

أما ما يتعلق بـ :

- علاقة الجزائر بأندلسي سلا:الذين تمكنوا من تأسيس جمهورية مستقلة فيها عن نفوذ زيدان في سنة 1627م (29)، فنشير إلى ذلك التعاون الذي كان يقوم بين الغزاة السلاويين، والغزاة الجزائريين في مجال الغزو البحري، وكل ما يتصل به. (30)

لقد كان البحارة الجزائريون يقصدون سلا لبيع مغانمهم، وأسراهم حين يكون هنالك مانع من بيعها في الجزائر، وكذلك كان أندلسيو سلا يفعلون في الجزائر.كما كان الجزائريون والسلاويون يتبادلون الأعلام، دفعا لملاحقة السفن المعادية، فكان الغزاة السلاويون يحملون أعلام الجزائر، عند ملاحقة سفن معادية لهم، ومسالمة

للجزائريين.ومثل ذلك كان يفعل الغزاة الجزائريون حين تلاحقهم سفن بلد معاد للجزائر، ومسالم لسلا، حتى أصبح يطلق على الغزاة السلاويين ((أتراك سلا)). (31)

وقد كان لذلك التقارب فوائد للجزائر،إذ كان أندلسيو سلا بمثابة أعوان، وعيون لها في المغرب. (32)

وأما ما يتعلق بـ:

- علاقة الجزائر بالمجاهد العياشي : الذي كان تابعا لزيدان قبل أن يميل إلى الاستقلال عنه فيؤكدها، قيامه بافتداء أحد رياس البحر الجزائريين الذين وقعوا في قبضة(33) الإسبان، وهو الرايس طائف في مقابل ضابط إسباني كبير وقع في قبضته . وقيام سفن جزائرية بالمشاركة في حصار العياشي والسلاويين للمعمورة المحتلة من طرف الإسبان .واعتبار الجزائريين العياشي حليفا لهم(34). ولما انتهى أمر العياشي في المغرب تعامل الجزائريون مع الدلائيين، الذين سادوا بعده على سلا وفاس وتطوان وغيرها.(35)

والذي يستخلص مما تقدم أن حكام الجزائر لم يتدخلوا لنصرة أحد أبناء المنصور وأحفاده، أو لإصلاح ذات البين بينهم، أو لمؤازرتهم ضد الثائرين عليهم، أو لمد نفوذهم على المغرب.مما جعل العلاقات بينهم وبين خلفاء المنصور لا تعرف القطيعة والحرب، رغم الصلات التي كانت لحكام الجزائر مع خصوم زيدان وإخوانه . وإذا ما بحث الآن في :

ب- الأسباب التي جعلت العلاقات بين حكام الجزائر، وأبناء المنصور لا ترقى إلى التعاون الفعال بينهم، وجد أن من أهمها :

أ- معاناة الحكام في البلدين، فحكام الجزائر في الفترة موضوع البحث كانوا يعانون من اضطراب الأمور فيها، ثم من نزاعهم مع حكام تونس على الحدود في الفترة 1614-1628م، الأمر الذي لم يكن يسمح لهم بالتدخل بقوة في المغرب لنصرة هذا أو ذاك من أمرائه على تحقيق ما يريدونه خلال القرن 10هـ/16م . ولذلك فإنه لما التجأ زيدان في سنة 1604م، إلى تلمسان لطلب عون الجزائر،لم يحصل عليه، لأن باشا الجزائر في تلك السنة،وهو خضر باشا، قد دخل في نزاع مع فرنسا، بسبب إقدامه على انتزاع المحطة التجارية التي أقامها الفرنسيون في القالة منهم،وإيداع العاملين فيها في

السجن، مما جعل فرنسا تشكوه إلى السلطان العثماني فعين باشا آخر، وكلفه بالتخلص منه، وهو ما تم في سنة 1605م.(36)

أما في سنة 1609م، التي توجه فيها أبو فارس، وعبد الله، نحو الحدود الجزائرية على أمل الحصول على الملاذ والدعم، فقد كانت الجزائر تعاني فيها من استمرار القبائليين في ثورتهم، وتآمرهم مع الإسبان ضد الحكم العثماني في الجزائر.

وكانت حكومة الجزائر منشغلة بأمر مسلمي الأندلس الذين أصدرت الحكومة الإسبانية أوامرها بنفيهم من هناك.فتوجه الكثيرون منهم إلى الجزائر(37) .كما انشغلت خلال النصف الأول من القرن 11هـ/17م بما أشير إليه من ثورات داخلية، وغزوات التوسكان والإسبان، والإنجليز، والهولنديين، وتزايد نفوذ ديوان الجند، وطائفة الرياس على حساب نفوذ الباشاوات النزاع مع تونس، والمجاعة أحيانا والجفاف والطاعون أحيانا أخرى (38)، مما يكون قد جعل حكامها لا يرغبون في التدخل بقوة في صراعات أبناء المنصور، وصراعاتهم مع خصومهم لدعم هذا أو ذاك منهم.

وكان حكام المغرب السعديون من أبناء المنصور وأحفاده في الفترة موضوع البحث يعانون من الافتتان على السلطة في بدايتها، ثم مما جرّه ذلك الافتتان من غزو خارجي، وتفكك داخلي، فكانوا أحوج ما يكونون إلى مساعدة جيرانهم حكام الجزائر، ولكن هؤلاء لم يتجاوبوا معهم التجاوب المرغوب الأمر الذي جعلهم يتطلعون إلى تعاون الدولة العثمانية مباشرة من المركز .وغيرها من الدول (39).

ب- نظرة حكام الجزائر إلى أبناء المنصور وأولادهم، ونظرة القبائل المغربية، وحتى سكان الحواضر الكبرى كفاس، ومراكش وغيرهما إليهم التي لم تعد ترى فيهم أولئك الأمراء الجديرين بالتعاون معهم، والالتفاف حولهم. فتحول ولاء القبائل وحتى سكان الحواضر إلى غيرهم من المرابطين، والمجاهدين. ولما كان أي منهم لا يتوفر على الإجماع في المغرب من أبناء المنصور وأحفاده، والمنشقين عنهم، فإن حكام الجزائر لم يتورطوا بنصرة أي واحد منهم على الآخرين، ولم يسعوا إلى ترقية التعاون مع أي منهم. بل اكتفوا بإقامة صلات محدودة مع أبناء المنصور مثلما أقاموا صلات موازية مع القوى التي انشقت عنهم.ولعل أقوى الصلات هي التي كانت بين علماء البلدين ولا سيما بين

بحارتهما في مجال الغزو البحري، وتصريف مغانم ذلك الغزو في البلدين، كما كان يحصل بين بحارة الجزائر وبحارة تطوان وسلا وغيرهما من موانئ المغرب، الذين مالوا في الفترة موضوع البحث إلى التحرر من نفوذ السعديين عليهم. وهو ما لم يكن ليرضي أبناء المنصور وأحفاده أو يساعد على ترقية العلاقات بينهم وبين حكام الجزائر.

ج- نتائج عدم التعاون بين حكام البلدين:

إن عدم التعاون الفعال بين حكام الجزائر، وأبناء المنصور، والمنشقين عنهم لم يؤد إلى القطيعة بينهم، ولكنه أسفر عن نتائج هامة في البلدين، منها:

-أن البلدين لم يتغلبا على كل الصعوبات الداخلية التي كانا يعانيان منها؛ فتجزأ المغرب على الخصوص إلى وحدات سياسية عديدة.

-أنهما صارا من جديد هدفا للقوى الخارجية، وفي مقدمتها إسبانيا،التي لم تكتف بما كانت تحتله من المواقع في البلدين، بل طمحت إلى المزيد فيهما، فاستغلت ميل الأمور فيهما إلى الاضطراب الشديد لشن العديد من الحملات عليهما باءت كلها بالفشل في الجزائر.

بينما نجحت في المغرب في احتلال العرائش، سنة 1610 م، ثم المعمورة في سنة 1614 م على الساحل الأطلسي.وحتى الإنجليز والهولنديين أخذوا يتطلعون إلى احتلال مواقع أخرى في المغرب، على الساحل الأطلسي ذي الأهمية الكبرى في الإشراف على الطريق العالمي للتجارة مع الهند، والعالم الجديد، وغربي إفريقيا.(40)

-إن عدم التعاون الفعال بين حكام الجزائر وأبناء المنصور قد جعل هؤلاء يبحثون عن المساعدة من الدول الغربية، وكذلك من الدولة العثمانية، لتحقيق طموحاتهم في الملك، والانفراد به في المغرب ؛ فأبو فارس فتح باب الاتصال مع الدولة العثمانية منذ سنة 1604م، كما ذكرنا، على أمل التعاون معها والاستمرار في إقامة العلاقات السلمية بين الدولتين،بما في ذلك الجزائر، كما كانت في عهد والده(41). أما محمد الشيخ فقطع البحر إلى إسبانيا بحثا عن دعمها، كما تقدم .وأما زيدان فأخذ بعد عودته من الجزائر في الاتصال بداية من سنة 1607 م على الأرجح، بملك إنجلترا جيمس الأول، وفي استخدام المرتزقة الإنجليز في حروبه(42) ثم بعث بسفرائه سنة 1610 م إلى الأراضي الواطئة

للحصـــول مـــنها على بعض رجال الحرب، وعلى العتاد الذي يلزمه في محاربة الإسبان، وغيرهم(43).

وفـــي صـــيف سنة 1610 م استقبل جون هارسون، سفير الملك جيمس، وتداول معـــه فـــي القضايا التجارية وغير التجارية.ولدى عودته في ربيع سنة 1611م بعث معه سفيرا مغربيا محملا بالهدايا إلى ملكه، كما بعث سفيرا آخر إلى الأراضي الواطئة (44) . والقصـــد من وراء ذلك كله الحصول من هذين البلدين على ما يحتاجه من العون بالسلاح وغيره. وهو ما لم يحصل عليه من الجزائر.

ولمـــا فشل زيدان في الحصول على دعم حقيقي ضد خصومه وأعدائه من هولندا وإنجلترا، ومن الجزائر أيضا تطلع إلى الحصول على الدعم المرغوب من الدولة العثمانية في إستانبول.واستغل فرصة اتصاله برسالة بعثها إليه الوزير خليل باشا، أميرال الأسطول العثماني، تحمل تاريخ 19 شوال 1022هـــ/2 ديسمبر 1613 م،دعاه فيها الى اتباع تقاليد أســـلافه الودية مع الدولة العثمانية (45) ليرسل في السنة الموالية سفارة إلى الباب العالي عـــن طريق الجزائر لم تصل إلى مقصدها بسبب أهوال الطريق(46) ومن أجل الحصول على الدعم المأمول منه السلطان العثماني وجّه في سنة 1025هـــ/1616م، سفارة نجحت في مهمتها، قادها الكاتب عبد العزيز الثعالبي، محملة برسالتين،برر في إحداها تأخره عن مخاطبـــته بالاشتغال بقتال الكفار،وتأمين مملكته وطلب منه العون عليهم.وطلب في الثانية قطـــع طـــريق الهـــند علـــى الكفرة مصدر قوتهم، كما حملت السفارة هداياه إلى السلطان العثماني أحمد بن محمد الثالث.(47)

ويســـتفاد مـــن قـــول هذا الأخير في رسالته الجوابية إليه ((فما دمتم في مراعاة الحقـــوق ساعين، ولدولتنا الإسلامية راعين لا تلقون من سدة العز، والإقبال، سوى النظر بعيـــن الإعـــزاز والإجلال ...)).(48)أنه قد رحب بمخاطبة السلطان السعدي له، وتوده إلـــيه،على الـــرغم من تأخره عن فعل ذلك سنوات عديدة،مما يعني أنه سينظر إلى طلباته بعين القبول. كما يفهم من قوله أيضا في نفس الرسالة: ((وكان اللائق بكم، والواجب على ذمـــتكم أن تســـتمدوا بنا، وتستعينوا بأعتابنا قبل أن يتصادم الصفوف، ويتزاحم الزحوف، فنحن بحول الله قادرون على إيصال عسكر يضيق عليهم الطريق والمسالك، ويلجئهم إلى

المضايق والمهالك ... وتكون إعانتنا هذه مرغمة لأنوف الكافرين، ومكسرة لجموع أهواء الخاسرين المتجاسرين حتى تنقطع أطماع أعدائه من تلك البلاد، ويندفع عنها أسباب الشر،ومواد الفساد...))(49). وأبدى السلطان العثماني استعداده لأن يهب للدفاع عن الشواطئ المغربية، ويجعل هذه أولى المهمات له، وهو ما يفهم من قوله: ((ولا يشغلنا عن الإمداد بعون رب العباد أشغالنا...))(50). كما أبدى استعداده لقطع الطريق إلى الهند على الإسبان والبرتغاليين فقال في جوابه: ((فنحن بإذنه سبحانه وتعالى نتقيد بأدائه، ونرسل الأوامر الشريفة لأمرائنا المحافظين في حدود البصرة، ونأمرهم في ذلك الفتوة والنصرة)).(51)

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل تحقق التعاون بين زيدان والدولة العثمانية بعد عودته سفارته المذكورة؟

يستفاد من الوثائق أن زيدان طلب من السلطان عددا من السفن والبحارة من الجزائر.وأن طلبه حظي بالقبول، وصدر الأمر إلى الجزائر بتقديم ذلك العون عندما يطلبه زيدان منها(52). كما يستفاد منها أن باشا الجزائر بعث بريدا إلى زيدان يبدي استعداده له لمساعدته (53).

ويتحدث الإفراني من جهته عن استجابة السلطان العثماني لطلب السلطان المغربي، وعن تجهيزه قوة من اثني عشر ألفا من الترك مختارة، بعثها عن طريق البحر مع الثعالبي، ولكن العمارة التي كانت تنقلها تعرضت لعاصفة أغرقتها، ولم ينج منها إلا غراب واحد فيه شرذمة قليلة(54)، لم يشر إلى عددها أو إلى وصول ذلك الغراب إلى المغرب.

ويبدو أن مشروع التعاون بين زيدان، والسلطان أحمد العثماني قد مات بعد سنة واحدة من ميلاده، بموت السلطان أحمد في 1027هـ/1618م(55)، لأن الوثائق والمصادر لا تتحدث عن وصول الدعم الفعال إلى زيدان، سواء من عاصمة الدولة العثمانية،أو من الجزائر.مما جعله عاجزا عن التغلب على الصعوبات التي كانت تواجهه.وقد أثار تقربه من العثمانيين قلق الإسبان ومخاوفهم، فأخذوا يفكرون في مواجهة

الموقف الجديد، وفكر حكامهم خلال سنتي 1027- 1028هـ/1618-1619م، في القيام بحملة كبيرة على الجزائر وقواعدها الساحلية الأخرى.(56)

وإذا كان زيدان على ضعفه وعجزه، قد ظل بعد مقتل أخويه أبي فارس، ومحمد الشـيخ محل اهتمام الدول، تخاطبه ويخاطبها، وتقيم العلاقات معه، فإن تلك الدول ومنها الجزائـر أيضا لم تتورع عن الاتصال والتعامل مع خصومه من القوى المحلية، مما كان يثـير غضـبه واسـتياءه، ويضـعفه، بحيث اضمحل حكم السعديين في فاس،وتقلص في مراكش في إلى حد كبير عند وفاته في سنة 1037هـ/1627م.

ومما تقدم يمكن القول:

1-إن العلاقـات بيـن الجزائـر والمغـرب قد تميزت في عهد أبناء المنصور ومعاصريهم من باشاوات الجزائر بالسلام. ولكنها لم ترق إلى التعاون الفعال بينهم للتغلب على الصعوبات التي واجهتهم في البلدين.

2-إن عـدم التعاون بشكل فعال بينهم قد عجل بأفول نجم أبناء المنصور أولا في مملكة فاس ثم في مراكش.وأضعف شأن الباشاوات في الجزائر.

3-إن اضـطراب الأوضـاع في المغرب، وميلة إلى التجزؤ والضعف قد طمأن حكام الجزائر على حدودهم الغربية، مما جعلهم يوجهون أنظارهم لضبط الحدود مع تونس بعـد صراع عنيف من أجلها، ولمعالجة مشاكلهم الداخلية من ثورات وتمردات، ولمواجهة الأخطار الخارجية من مؤامرات وحملات.

4-إن عـدم الـتعاون الفعال بين حكام البلدين أطال من عمر احتلال الإيبيريين لمواقـع عديدة في البلدين، وسمح لهم باستغلال الخط التجاري الذي اكتشفوه عبر الأطلسي مـع الهـند وأمـريكا استغلالا مكنهم من الحصول على ثروات كبيرة، وهو ما أدى إلى اختلال كبير في توازن القوى بينهم وبين مسلمي المغرب الكبير.

الهوامش

1- انظر عن علاقات المغرب الخارجية في عهد المنصور.

- عبد الكريم كريم: المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط 1977م، ص77-226.

- عمار بن خروف: العلاقات بين الجزائر والمغرب 1517-1659، الفصلان الخامس والسادس، ص 200-248.

2- انظر عن الأوضاع في الجزائر:

-De Grammont (H) : Histoire d'Alger sous la domination turque, Paris 1887,p145-1.

Mercier (E) : Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus-reculés jusqu'à la conquête française (1830) Paris 1891, t3, p179-208

3- نفسه: ص 208-209 .

- ابـــن أبي دينار القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس 1967، ص207-208.

-عمـــار بـــن خـــروف: العلاقـــات السياســـية بين الجزائر وتونس 1574-1671 /في/ دراسات إنسانية.العدد الثاني، الجزائر 2002، ص120-123.

4- ا نظر عن افتتان أبناء المنصور وما آلو إليه:

- محمد الصغير الإفراني: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تصحيح ونشر هوداس، آنجي 1888، ص190-200

- المجهول: تاريخ الدولة السعدية التاكمادارتية، تعليق ونشر جورج كولان، الرباط 1934،ص78 -101.

- تقرير رو.ك (Ro.c) إلى روبير كوتينجتون وهو بتاريخ1609 في مجلة تطوان، عدد 9 تطوان (المغرب)-1965ص 86 وما بعدها.

- عبد الرحمن التامنارتي : الفوائد الجمة .ترجمة جوستينار، فرنسا 1953، ص 86 وما بعدها.

5- محمد خير فارس: تاريخ المغرب الحديث والمعاصر دمشق 1981، ص 88،80.

6- نفسه: ص 84-92.

7- الإفراني: المصدر السابق، ص258،243.

8- نفسه:ص87.

- عمار بن خروف: المرجع السابق، ص230-232.

9- انظر عن عهدهما، نفس المرجعين السابقين.

10- زعم السلطان أحمد المنصور لأحمد بابا التمبكتي أن النبي (ص) هوالذي قال:

((اتركوا الترك ما تركوكم))، أنظر الإفراني : نفس المصدر، ص 97.

11- شانتال دولافيرون : Chantal de la véronne : les relations entre le Maroc et la Turquie..(1554-1616)/in/Revue de l'occident musulman et de la Méditerranée, Aix –en Provence,1975.

12- عبد الله كنون: رسائل سعدية، تطوان 1954 (رسالة المنصور إلى خضر باشا)، ص 258-260.

13- انظر عن سفارته، عبد الهادي التازي : سفارة شيرلي إلى المغرب/في/ المناهل عدد 9 المغرب 1977 وما يليها.

14- انظر رسالة دوليسل (أ): إلى مستشار الدولة الفرنسيّة بتاريخ 29-01-1606/في/ Sources inédites de l'histoire du Maroc (S.I.H.M) France ,t2,p231-233

15- شانتال دولافيرون:المرجع السابق،ص398.

16- انظر رسالة زيدان إلى يحي الحاحي /في/ نزهة الحادي،للإفراني،ص223.

وانظر أدناه المزيد من الحديث عن علاقاته مع العثمانيين.

17- الإفراني: نفس المرجع،ص223،222،193.

- تقرير رو. ك في المرجع السابق،ص107،91،90.
- S.I.H.M.Ang.t2,p240,243,244.

18- الإفراني : نفس المصدر،ص193-196.

19- نفسه :ص 195-198.

- المجهول: المرجع السابق، ص91-92..S.I.H.M France,T2,pp99-100et note 2

-أمينة اللوة :قضية العرائش من خلال كتاب (العرائش)/في/ البحث العلمي عدد27 الرباط 1977، ص190-191.

20- الإفراني :نفس المرجع،ص 198وما بعدها، وفارس : المرجع السابق،ص 78-92.

A. Cour : l'établissement des dynqsties des chérifs au Maroc et leurs rivalités avec les Turcs de la régence d'Alger,1509-1830,Paris 1904, p

A.Cour : l'établissement des dynasties des chérifs au Maroc et leurs -21 rivalités avec les Turcs de la régence d'Alger 1509-1830 ,Paris 1904.

22- تقرير هارسون لعام 1625، في مجلة تطوان، عدد 10،تطوان 1965،ص 28.

- Haedo(F.D.de.) : Topografia historia general de Argel/in/ revue Africaine Traduction française de Berbrugger et Monnereau ,t.15 Alger. 1870,p46.

23- هو أبو العباس احمد بن عبد الله/ انظر عنه الإفراني: المصدر السابق،ص200-203.

الحسن اليوسي: كتاب المحاضرات، فاس 1317،ص90.

- تقرير هارسون لعامي1631،1627 في مجلة تطوان عدد 10،ص66-67.

24- سعد الله (أبو القاسم) : تاريخ الجزائر الثقافي،الجزائر 1981،ج1،ص367.

25- العياشـــي(أبـــو ســـالم):ماء الموائد .طبعة فاس الحجرية 1316، ص29 .الإفراني : المرجع السابق، ص203-205.

26- رسالة رو.ك في المرجع السابق، ص133.

27- رسالة (ر.س) المؤرخة في مجلة تطوان عدد9، ص129-132.(وهي بتاريخ 1612/9/9).

- الإفراني: المرجع السابق،ص207.

28- الإفراني : نفس المرجع،ص208-209، المجهول: المرجع السابق،ص 101-102.

29- انظر تقرير هارسون لعام 1627 في مجلة تطوان عدد10، ص59.وانظر (كواندور) Coindreau (R) : les corsaires de salé ,Paris 1946

30- كور(أ): المرجع السابق،ص 163-167.

31- كواندرو: المرجع السابق.

32-تقرير وليم كورت في مجلة تطوان،عدد 10وهو بتاريخ 17-5-1625.

- تقرير هارسون لعام 1627 في مجلة تطوان عدد 10، ص54.

33- الإفراني : النزهة،ص266.

34-S.I.H.M (Ang). t2, p517-518.

- ابراهـــيم شـــحاتة حســـن: أطوار العلاقات المغربية العثمانية قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون 1510-1941، الاسكندرية 1981،ص269.

35- محمد حجي: الزاوية الدلائية، ودورها الديني والعلمي والسياسي، الرباط1964.

36- دوغرامون: المرجع السابق، ص145.

- ميرسي: المرجع السابق،جـــ3،ص179-180.

37- ميرسي: نفس المرجع، جـــ3،ص183-186.

38- انظر نفس المرجع السابق، جـــ3،ص189-209.

- دوغرامون: المرجع السابق، ص150-163.

39- انظر أدناه،ص8-10.

وانظر تقرير هارسون لعام 1625 في مجلة تطوان عدد10، المغرب 1965.

40- انظر بن تاويت : من زوايا التاريخ المغربي في مجلة تطوان عدد 9، ص118.

41- شانتال دولافيرون: المرجع السابق، ص398.

42- ابن تاويت : من زوايا التاريخ المغربي في المرجع السابق عدد9، ص73.

وانظر تقرير رو.ك في المرجع السابق، ص106.

43- ابن تاويت : نفس المرجع،ص118.

44- انظر تقرير هارسون في مجلة تطوان عدد10، ص105.

45- انظر ترجمة رسالة خليل باشا إلى الإسبانية في مجلة الغرب الإسلامي والمتوسط R.O.M.M عدد 15-16،ص400-401.

46- S.I.H.Mهولندة) جـ3،ص44-46.وغيرها.

- وانظر نفس المصدر (هولندة) جـ2، ص324-355.

- ورسالة زيدان إلى السلطان أحمد /في/ مجموعة منشآت السلاطين لفريدون بك، جـ 2، 1264هـ،ص155.

47- S.I.H.M(م.م.ت.م) هولندة،جـ3،ص44.

- رسالة زيدان في نفس المرجع، ص155.

- وانظر: Hammer (J.):Histoire de l'empire ottoman, trad. En français par J.J.Helert, Paris 1837,t8,p249.

وحسب الافراني، وآخرين بعث زيدان مع سفارته عشرة قناطير من الذهب :النزهة،ص239.

48- انظر نص الرسالة الجوابية /في/ مجموعة منشآت السلاطين لفريدون بك، جزآن 1264، جـ2 ، ص155 وهي بتاريخ أواخر صفر سنة 1026هـ/اواخر فيفري 1618.

49- نفسه.

50- نفسه.

51- نفسه.

52- انظر رسالة سفير الولايات العامة في S.I.H.M هولندة،جـ3،ص26-27.

53- نفسه: ص27 والهامش1.

54- النزهة:ص239.

55- توفي السلطان أحمد في 11 ذي القعدة سنة 1027هـ/23-11-1618.

56- أرشيف سيمونكاس الورقة 62من ملف 1950.